(٣٢) أصل القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: قال المصنف –رحمه الله تعالى –: وقد علم تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يُزاد، فلا يُزداد في ذلك العدد ولا يُنقص منه: إي والله، الله سبحانه وتعالى قد علم بسابق علمه من أهل الجنة؟ ومن أهل النار؟ **{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى: ٧]** ، علمهم بأسمائهم وأعدادهم، لاتخفى عليه خافية، كان سفيان بن عيينة –رحمه الله– إذا حدث بحديث القبضتين يبكي، يبكي –رحمه الله– ويقول: ليت شعري! في أي القبضتين أنا؟. ما منا أحد يعلم في أي القبضتين هو؟ لكن نحسن الظن بربنا، والله عند ظن عبده به.

فالله سبحانه قد أخفى عنا القدر وأظهر لنا الشرع، فالعاقل اللبيب الحازم هو الذي يشتغل بالشرع ولا يضيع عمره بالتفكير في القدر، لا يمكن أن تصل إلى شيء، لكن اشتغل بالشرع والله سبحانه وتعالى إن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً، وإن تقربت إليه ذراعاً تقرب منك باعاً، وإن أتيته تمشي أتاك هرولة، كما في الحديث الصحيح.

فربنا سبحانه وتعالى قد علم فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، ولا يُزاد في ذلك ولا يُنقص، وبالتالي: فإن قول الله تعالى: **{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩]** ليس فيه تغيير وتعديل لما في أم الكتاب، وقد أجبنا عن ذلك الليلة الماضية من أن المراد بالمحو والإثبات الحسنات والسيئات وليس التقدير، وعلى فرض أن المراد به التقدير فإن الذي في أم الكتاب مجموع ذلك ومحصلته وما تؤول إليه الأشياء، فقد –مثلاً– يستوجب أحد شيئاً ويستحقه ثم يتداركه الله برحمته، فيكون الذي في أم الكتاب يعني ذكر الحالين ومآلات الأمور، لا أمر يُعدل فيما بعد ويغير.

ثم قال: وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خلق له: قوله: وكذلك: عطف على علم الله تعالى بأهل الجنة وأهل النار وأعدادهم، يعني كما علم ذلك سبحانه وتعالى من حيث المآلات علم ذلك من حيث المقدمات، فقد علم سبحانه وتعالى أفعالهم، يعني من سيطيعه ومن سيعصيه، لا كما تقول القدرية: من أن الأمر أُنف، وأنه أمر ونهى وأنه لا يعلم من سيطيعه؟ ومن سيعصيه؟ فهذا وصف له بالجهل، تعالى الله عما يقولون.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

قال: وكل ميسر لما خُلق له: إي والله، الله سبحانه وتعالى منه الإيجاد والإعداد والإمداد، سبحانه وبحمده، منه الإيجاد: فهو الخالق، ومنه الإعداد: فقد أعد العبد بالأدوات والآلات التي يحصل بها الفعل، ومنه الإمداد: أمده بتوفيقه وعونه، أو منعه من ذلك إن شاء. فكل ميسر لما خُلق له، فسر النبي ﷺ هذه الجملة بقوله: (فأما أهل السعادة فيُيسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسرون لعمل أهل الشقاوة، **{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٥، ٦]**)، إذن هذه أعمال أهل السعادة، **{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}**: أي الجنة، **{وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى}**: إذن هذه أعمال أهل الشقاوة، **{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}**: أي النار، ولذلك – يا أيها المؤمن- إذا رأيت الله تعالى يقيمك في طاعاته فهذا من عاجل بشرى المؤمن، فاستبشر خيراً واحمد الله واغتبط بنعمة الله، لا يحملنك ذلك على الغرور حتى تظن من أنك قد أمسكت كتابك بيمينك، لا، عليك أن تحذر من مكر الله، لكن ليكن في هذا نفس لك من أن الله سبحانه وتعالى أقامك في طاعته وحبب إليك الإيمان وزينه في قلبك، لأن هذا حسن الظن هذا أيضاً من العمل الصالح ومن العبادة، لكن لا يجنح بك هذا الشعور حتى تقع في المحظور فتتمادى أو تشعر بالأمان المطلق والطمأنينة، ينبغي أن تكون بين الخوف والرجاء.

ثم قال –رحمه الله-: وكل ميسر لما خُلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله: نعم، هكذا قال النبي ﷺ: (الأعمال بالخواتيم)، (الأعمال بالخواتيم): يعني على ما يُختم للإنسان، فإن خُتم له بإيمان وتوحيد فهو من أهل السعادة، ومن خُتم له بشرك وكفر فهو من أهل الشقاوة، فـ(الأعمال بالخواتيم)، فلهذا ينبغي للإنسان أن يسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة، وعافانا الله وإياكم، كم من إنسان عاش دهراً –فيما يبدو- ثم خُتم له بردة وانتكاسة؟ وكم من إنسان عاش دهراً على عمل سوء وشرك وضلالة ثم شرح الله صدره للإسلام وقتاً يسيراً ومات عليه؟ هذا كله موجود، أليس كذلك، يقول **عبد الله بن مسعود** ﷺ **في حديث الصادق المصدوق، عنه** ﷺ: **(فوالذي نفسي بيده، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب –كتاب القدر- فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)**، أرأيتم يا إخوة؟ كل هذا، لا شك أن هاتين الجملتين تبعث في النفس الخوف والرهبة والقلق، لكن ليس المقصود من ذلك أن يكون الإنسان في اضطراب وقلق بلا جدوى، لا، ثمرة ذلك أن يعلم العبد بأن التوفيق بيد الله، وأن الهدى بيد الله، وأن الدفع والرفع وكل شيء بيد الله فيبقى قلبه معلقاً بالله، لا أن يفهم من ذلك أن في الأمر شيء من المخاتلة أو الاستذلال، لا، الله سبحانه وتعالى حكم عدل مقسط، يعني إذا علم من عبده الصدق زاده: **{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]** ، لكن حينما يتمادى به

الأمر ويطيش عنده الميزان كالذي قال: (والله لا يغفر الله لفلان. قال: من ذا الذي يتألى عليّ ألا أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت له وأحبطت عملك)، جنى بلسانه، ولهذا قال أبو هريرة ﷺ: لقد قال كلمة أوبقت دنياه وأخراه.

فالمقصود –يا إخوة– من هذا الحديث: أن يبقى الإنسان معلقاً بالله عز وجل، يعلم أن الهدى والضلال بيد الله سبحانه وتعالى، وألا يستطيل على عباد الله أو يلمزهم من وجه فيه نوع من الاستطالة والعدوان، لا، يعلم أن الهدى بيد الله والإضلال بيد الله، كم من أناس كانوا على دين وعمل صالح –فيما يبدو للناس– كما جاء في حديث الصادق المصدوق، في بعض ألفاظها: (فيما يبدو للناس)، ثم تدركهم فتنة مضلة؟ عافانا الله وإياكم، وثَم أمثلة –لا تخفى عليكم– تدركه فتنة فيفتتن ويخرج عن الجادة، والعكس موجود، كان أبو هريرة يُلغز بهذا فيقول: من رجل دخل الجنة لم يركع لله ركعة؟ من رجل دخل الجنة لم يركع لله ركعة؟. يريد بذلك من؟ الأصيرم، أصيرم بني عبد الأشهل، فقد كان ﷺ راداً لهذا الدين، لم يدخل فيه، في الإسلام، ولم يبايع النبي ﷺ عليه، فلما وقعت غزوة أحد وقع الإسلام في قلبه وخرج إلى أحد والناس يقتتلون، فقاتل في سبيل الله وأبلى بلاء حسناً حتى أثخنته الجراح وأدركه بعض الصحابة وبه رمق، فقال: أقرئ رسول الله ﷺ السلام، وقل له: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله. فهذا الرجل مات على الإسلام، مع أنه لم يدرك فريضة واحدة يصلي فيها، دخل الجنة وهو لم يركع لله ركعة.

فالمقصود –يا إخوة–: أن هذا هو ثمرة الإيمان.

فالسعيد من سعد بقضاء الله: يعني السعيد من كتبه الله عنده منذ الأزل في ديوان السعداء. **والشقي من شقي بقضاء الله:** يعني من قضى الله عليه وقدر منذ الأزل أنه من الأشقياء، لكن هذا لا يمكن البحث فيه والنظر –كما أسلفنا–، هذا غيب مكنون، هذا سر مصون لا يمكن لأحد أن يطلع عليه، دوماً تذكروا هذه المعلومة: لله كتابان، كتاب مفتوح، وكتاب مستور: **كتابه المفتوح:** الشرع. **وكتابه المستور:** القدر. **فاشتغل بالشرع ودع عنك القدر إلى خالقه ومقدره سبحانه،** لهذا قال المؤلف بعد ذلك هذه الجمل: **قال: وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل:** إي والله، القدر سر الله في خلقه، شيء أخفاه الله تعالى وأسره، فلم يطلع على ذلك أحد إلا ما أذن الله تعالى بشيء منه أخبر به أنبياءه أو رسله أو ملائكته، لكن الأصل أنه سر، سر الله تعالى في خلقه: **{ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } [الجن: ٢٦، ٢٧].**

لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان: إي والله، من تعمق في القدر وأخذ يشقق الكلام ويتعمق لم كذا؟ وكيف كذا؟ ويعترض، فهذه ذريعة الخذلان، وهذا هو ما تجارت به الأهواء بأصحابها، حينما لماذا فعل الله كذا؟ لماذا خلق كذا؟ لماذا قدر كذا؟ **{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ**

يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣] ، يعني تجد بعضهم يقول: لماذا خلق الله الحيات والعقارب والخنافس والأمراض و... و... إلى آخره؟ هذا هو ذريعة الخذلان كما قال الشيخ –رحمه الله–.

قال: والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان: وهي كلمات وجمل متقاربة تؤدي معنى واحداً أو متقارباً، فالخذلان والحرمان والطغيان بعضها قريب من بعض.

فالحذر من ذلك كل الحذر نظراً وفكراً ووسوسة: نظراً وفكراً ووسوسة، أيضاً كلمات متقاربة: النظر: بمعنى الاشتغال في هذه المسائل التي لا سبيل لبلوغ علم فيها لأنها مغيبة، الفكر: كأنه شيء أو قدر زائد على النظر، فقد يكون النظر بادئ الأمر، بادئ الأمر، ولهذا مر علينا أن المتكلمين كانوا يقولون: أول الواجب على المكلف ماذا؟ النظر أو القصد إلى النظر أو الشك. أو فيجعلون النظر أول مبادئ الشيء، الفكر: شيء أكثر من ذلك، بمعنى أنه يتعمق في النظر، الوسوسة: هو ما يؤول إليه، لأن من اشتغل فيما ليس من شأنه استحل الأمر في حقه إلى مرض، وسوسة، والوسوسة: مرض نفسي معروف، ويُصيب الناس في أمور متعددة، تارة يصيبهم في عباداتهم: في الطهارات والصلاة، وتارة يصيبهم في عقائدهم بالتساؤلات المريبة المظلمة والظنون الفاسدة والخيالات، وتارة يصيبهم في أمور الحياة: ما يدري هل فعل؟ أو لم يفعل؟ هل كذا؟ يضع الاحتمالات البعيدة، هو من الضلالات، نوع من الضلالات الذهنية والانحراف في طرائق التفكير يخرج الإنسان إلى الاعتلال، إلى نوع من الاعتلال، كما يعتل البدن تعتل النفس، كما يعتل البدن بحرارة أو صداع في الرأس أو مغص في البطن أو غير ذلك، تعتل النفس وتخرج عن حال السواء، فعلى الإنسان أن يحفظ عقله، ولهذا كان من الضرورات الخمس: حفظ العقل، فعود نفسك –يا طالب العلم– أن يكون تفكيرك مستقيماً وتفكر بطريقة صحيحة، إياك أن تبني نتائج على مقدمات فاسدة، لا تعتمد على الأوهام والظنون والقيل والقال، يوماً اجعل مبنى علمك على يقينيات أو على غلبة ظن، وشرح هذا يطول، ولكنها إشارة إلى أن الشرع أتى، ما يُدرس لكم –أحياناً– شيء يسمى: مهارات التفكير، أو نحو ذلك، هذه نذر يسير مما جاءت به النصوص الشرعية، فإن النصوص الشرعية ضبطت العقل وحددت مساره بحيث لا يزيغ يمنة ولا يسرة، وما يتحدث به المدربون وأصحاب الدورات وغير ذلك ما هو إلا نوع من التطفل على النصوص الشرعية، وإلا ففي النصوص الشرعية من هذا كم هائل وأمثلة بديعة تضبط عقل الإنسان وفكره، ولهذا أُمروا إلى تراث المسلمين من المؤلفات في الفقه والأصول وغيرها، ما كان هذا لينشأ في أي أمة من الأمم إلا لأن خط التفكير قد أُعدت سياجه ورُسمت معالمه، فخرج هذا النتاج العظيم.

فلهذا قال: فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة: ما هو ذلك المشار إليه؟ التفكير في سر، في القدر، لأنه سر الله في خلقه.

فإن الله تعالى قد طوى علم القدر عن أنامه: إي والله. **فإن الله تعالى قد طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه:** مرامه: يعني تحصيله والوصول إلى غايته. **كما قال تعالى في كتابه: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]:** فطب نفساً أيها المؤمن وقر عين بما دلت عليه هذه الآية: **{لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}.**

فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب: لأن الكتاب قد حكم بأنه: **{لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ}**، فمن سأل: لم فعل؟ لم أمر العباد ونهاهم ثم عذبهم على أمر قد قدره عليهم؟ فقد رد حكم الكتاب، هذا مراده بقوله: فمن سأل: لم فعل كذا؟: يعني لم قدر ثم عاقب؟ هكذا يصورونها بهذا الإخراج، أو بهذا التصوير غير المنصف، ويقذفون على حواجز كثيرة بين المبتدأ والمنتهى فيصورونها وكأنها نوع من التناقض، ولكن العالم البصير يدرك بأنهم إنما نالوا ما نالوا واستحقوا ما استحقوا بما كسبت أيديهم وبسبق إصرار ومحض اختيار.

قال: فمن سأل: لم فعل كذا؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

ثم قال: فهذا: أي المشار إليه مما تقدم تقريره من مسائل القدر.

قال: فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى: كأن الشيخ يريد من طالب العلم وقارئ متنه أن يقنع بهذا القدر، وإلا ثم لغط كثير وأخذ رد، وتجاذبات يجدها الإنسان في الشروح بين الزائغين وبين الراسخين، فيها من الإيرادات الكثيرة التي يوردونها مما تشتعل به أذهانهم وعقولهم فيتقيؤونها فيضطر أهل السنة والجماعة إلى الرد عليها ومناقشتها، فمن عوفي فليحمد الله، ومن ابتلي بمثل هؤلاء فلابد أن يجرد لهم سيف الحق ويرد عليهم وينقض شبههم شبهة شبهة، وثقوا تمام الثقة أن الحق أبلج، وأن الباطل لجلج، وأن أي دليل أو أي شبهة يشبه بها مبطل فلها من الله كاشف، وكل قاصمة فلها من الله عاصمة، هذا يجده المؤمن المطلع على كلام الله وكلام رسوله واضحاً بيناً. لهذا قال المصنف –رحمه الله–: فهذا: أي المشار إليه ما تقدم.

جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى: ما أجمل هذا التعبير! منور قلبه، لأن القلب –يا إخوة– إما أن يكون يعني قطعة من الظلمات، أو أن يكون شعلة مستنيرة، فالقلوب منها قلب ميت، ومنها قلب مريض، ومنها قلب مثل السراج يزهر، كأنه شعلة مضيئة، هذا القلب هو القلب المنور الذي حل فيه نور العلم والإيمان فصار كالكوكب الدري، كالشمس في توهجها، والقمر في إبداره، بل هو أعظم من ذلك وأبلغ، فلهذا يكون نور لا إله إلا الله في القلب متفاوتاً تفاوتاً عظيماً، فمن الناس من نور لا إله إلا الله في قلبه كالسراج الوهاج يحرق جميع الشبهات والشهوات، فإذا استنار قلبه بالإيمان فهذا النور يحرق ليس فقط الشبهات بل والشهوات، فإذا عنت له شهوة سلط عليها هذا النور الإلهي فأحرقها وتبخرت وتلاشت، ومن الناس من يكون نور لا إله إلا الله في

قلبه دون ذلك، حتى يكون من الناس من نور لا إله إلا الله في قلبه مثل الشمعة التي يعني تُضيء ضوء خافتاً، ومنهم من يكون دون ذلك، فلذلك تكتسحه ظلمات الشبهات والشهوات.

قال: وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: إي والله، الراسخون في العلم ليس العلم –أيها الإخوة– عن كثرة الكتب وكثرة المرويات وكثرة الإحاطة بالمسائل الخلافيات، وإنما أصله نور يقذفه الله تعالى في القلب، فاحرص على تحصيل هذا النور: **{وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢]** ، احرص على اقتباس هذا النور الإلهي، وأما ما يكون من الكتب فهي مساعدات لتحصيل ذلك النور والتفقه في الدين.

قال: لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود: علم في الخلق موجود ما هو؟ الشرع، وعلم في الخلق مفقود ما هو؟ القدر، طيب.

فإنكار العلم الموجود في الخلق كفر، وادعاء العلم المفقود كفر: فمن أنكر الشرع فقد كفر، من هؤلاء؟ المشركية، اللي هم الجبرية.

وادعاء العلم المفقود كفر: يعني ادعاء القدر وأن العبد يخلق فعل نفسه هذا قول من؟ قول المجوسية القدرية، كل هذا كفر.

قال: ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود: أي نعم، لا يثبت العلم، أو لا يثبت الإيمان إلا بهذا، يعني بطلب العلم، إلا بقبول العلم الموجود: وهو شرع الله، بأن يقول الإنسان: **{وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [البقرة: ٢٨٥]** ، وترك طلب العلم المفقود: بأن يقول الإنسان: آمنا بالله: **{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١]** ، وهذه هي طريقة أهل الإيمان، ولهذا ينشأ –يا رعاكم الله– عن الإيمان على هذا النحو ثمرات عظيمة جداً جداً، يعني من أعظم أسباب السعادة في هذه الحياة الدنيا الإيمان بالقدر، ومن لم يؤمن بالقدر على هذا النحو فإن نفسه تذهب حسرات، تأمل باختصار هذه الآية العظيمة لتروا أنها ديوان من دواوين السعادة، يقول الله عز وجل: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد: ٢٢]** ما الثمرة؟ **{ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } [الحديد: ٢٣]**: يعني لا تفرحوا فرح أشر وبطر، **{وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}**، فالمؤمن (إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر)، لهذا قال: **{لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ}**: فاتك شيء مما ترجو بقاءه ونواله لم تدركه خلاص، حينما تعلم أن الله لم يكتبه لك يطمئن قلبك، تقول: لو قُدر لكان. **{وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}** حينما تحصل على شيء إياك أن تفقد الجاذبية وتيسر بين السماء والأرض، ما تدري من

أنت؟ مثلما فعل قارون: **{قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: ٧٨]** ، لا، قل: **{هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي} [النمل: ٤٠]** ، كما قال سليمان: **{لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ}**، هذا الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، فالإيمان بالقدر يُنشئ نفساً مستقرة مطمئنة لا تعصف بها الأحداث، يقول النبي ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن!)، شوف! شيء يتعجب منه النبي ﷺ، (عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن)، صدق –بأبي هو وأمي– ﷺ، لأن ما من حي يدب على وجه الأرض إلا وهو عرضة لنوعين من الأقدار: إما أقدار سارة، وإما أقدار مؤلمة، وهذا يجري على المؤمن والكافر والبر والفاجر، أليس كذلك؟ ألسنا نرى بأم أعيننا أن من الصالحين من يُبتلى؟ ومن الفجار من ينعم؟ بلى، نجد هذا، نجد في الكفار كلا الحالين، ونجد في المؤمنين كلا الحالين، لكن: ما هي الثمرة الحقيقية؟ من قابل السراء بالشكران،والضراء بالصبر والسلوان فهو السعيد، ولهذا: تأملوا كيف تكلم الله تعالى عن هذه القضية في سورة الفجر، يقول الله سبحانه وتعالى: **{ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا} [الفجر: ١٥ – ١٧]** انظر لمجيء هذه الكلمة بعد هذين الوصفين وهذين الحالين، قال: **{كَلاَّ}**: أي ليس الأمر كما تظنون، ليس مجرد عطائنا دليل الكرامة، ولا منعنا دليل الهوان، ليس هذا هو دليل الكرامة ودليل الهوان، ليس بالضرورة، وإنما ما ينشأ عنه، فإذا كان الإنسان إذا أعطاه ربه شكر، وإذا منعه صبر فهو الكريم، وأما إذا كان إذا أعطاه ربه استخف وبطر، وإذا منعه ربه قنط ويئس فإن هذا هو الكفران.

إذن علينا أن نقيس الأمر بهذا المقياس الشرعي، وهذه أعظم ثمرة يحصلها الإنسان، فتهون عليه مصائب الدنيا ولا يستخفه الأشر والبطر، ولهذا تجدون –بحمد الله– في أهل الإسلام من القدرة على تحمل المصائب ما لا يوجد عند الأمم الأخرى: انظروا معدلات الانتحار في الأمم الكافرة، في اليهود والنصارى والذين لا يعلمون، كيف يرى أحدهم أن المخرج له من مصيبة حلت به أن يرمي نفسه من شاهق، أو يتعاطى جملة من الأدوية ليموت من ساعته، أو يستنشق عادم الدخان، الدخان العادم، أو يرمي نفسه بين قضبان سكة الحديد أو تحت عجلات السيارات، يظن المسكين أنه بذلك ينهي معاناته، وإنما انتقل من شقاء إلى شقاء أعظم منه، أما أهل الإيمان فكما قال الله عز وجل: **{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[البقرة:١٥٦–١٥٧]**، نعمة عظيمة لا غنى للإنسان عنها، فهذا من ثمرات الإيمان بالقدر.

وكما أنه –يا رعاكم الله– يبني النفس المؤمنة كذلك يبني الأمة بأجمعها، فالأمة التي تؤمن بالقدر أمة قوية، أمة حريصة على تحقيق مصالحها ودفع المفاسد عنها، فحين يختل الإيمان بالقدر وتصبح القياسات مادية كما هو الحال الآن في لغة العالم قياسات مادية بحتة لا تستدعي التوكل ولا اليقين ولا حسن الظن بالله ولا الدعاء، ويعتبرون هذا ليس داخلاً في القياسات ولا يمكن قياسه، إلى غير ذلك من الدعاوى، يكلهم الله إلى أنفسهم، فتُحبط أمورهم، خذوا هذا المثال النبوي أيضاً، وهو في باب القدر، وهو باب من أبواب السعادة، يقول النبي ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير): المؤمن القوي بإيمانه، ليس ببنيته، وإن كان القوة في البدن مطلوبة، لكن الأصل الوصف الذي عُلق به، (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان)، تأملوا في تأثير هذا التوجيه النبوي المبني على الإيمان بالقدر، يقول: رسم النبي ﷺ خطة للمستقبل، وخطة للماضي، كيف تواجه المستقبل؟ وكيف تواجه الماضي؟

المستقبل: بهذه الجمل: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز)، هذه خطة الطريق للمستقبل، أي أمر لك فيه نفع ديني أو دنيوي فاحرص على تحصيله، واستعن بالله، استعن بمعبودك للوصول إلى مقصودك، لا تعتمد وتقول كما يقول أصحاب البرمجة اللغوية العصبية: لا شيء مستحيل، الإنسان يستطيع أن يفعل المستحيل. إلى غير ذلك من ترهاتهم، لا غنى للعبد عن ربه: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

(ولا تعجز): لا تقل إذا أقبلت على شيء من مصالحك: يمكن، ربما، قد، لعل. وغير ذلك من العبارات المثبطة المحبطة. طيب.

خطة الماضي: ما تبين فيه قدر الله ماذا تفعل؟ يقول النبي ﷺ: (ولا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا)، خلاص، انتهى الأمر، تبين قدر الله في الأمر، لا تتعب نفسك في التأسي والتحسر على ما مضى، هذا أمر قد طُويت فيه الصحف ورُفعت فيه الأقلام، لو تحسرت من الآن على يوم القيامة لن يرد لك مفقودك، دع الماضي، بل تقبله بالرضا والتسليم، (فإن لو تفتح عمل الشيطان).

انتهى الوقت والحديث ذو شجون –كما يقال– وقد بقي بقية لعله يتسع لها درس واحد.

هذا وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.